المجلس (٧)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

السَّلامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ، الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ، وَالصَّلاةُ وَالسَّلامُ الأَتَمَّانِ الأَكْمَلَانِ عَلَىٰ المَبْعُوثِ رَحْمَةً لِلعَالَمِينَ، وعَلَىٰ آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ.

أَمّا بَعْدُ؛

فمعاشر الفضلاء بعد وقت قصير إِنْ شَاءَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ، ندلفُ إِلَى ليلة ثلاثٍ وعشرين من شهر رمضان المُبارك، وَهِيَ ليلةٌ مُباركة، من أرجى الليالي لإصابة ليلة القدر؛ فهي من العشر الأواخر، وقد قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «تحروا ليلة القدرِ في العشرِ الأواخر».

وَهِيَ من ليالي الأوتار، وقد قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «تحروا ليلة القدرِ في الوتر من العشر الأواخر».

وَهِيَ أولُ السبع البواقي، وقد قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من كان مُتحريها، فليتحرها في السبع البواقي».

وكان النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعتني بليلةِ ثلاثٍ وعشرين، وليلة خمسٍ وعشرين، وليلةِ سبع وعشرين عنايةً زائدة، مع اجتهادِهِ في العَشرِ كُلِّها، فقد كان المسلمون في زمن النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يُصلون قيام الليل أوزاعا، كُلٌّ يُصلي لنفسه، في شهرِ رمضان إلى أن كانت ليلةُ ثلاثٍ وعشرين، فصلى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأصحابه القيامَ جماعةً.

وهذا يدلُ على العنايةِ بهذه الليلة، وعلى أنها ليلةٌ مرجوة، يُرجى ويتأكد الرجاء أن تكونَ ليلةُ القدرِ فيها، وعندما قال أُنيسٌ الجُهني للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إن لي بادية وإني أصلي فيها بحمد الله، فمُرني بليلةٍ أنزل فيها إلى هذا المسجد، يعني إلى هذا المسجد الذي نحنُ فيه، مسجد النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أنزل ليلة ثلاثٍ وعشرين».

فكان أُنيس رَضِيَ اَللَّهُ عَنْه ينزلُ من باديته في يوم اثنين وعشرين، يعني في مثل يومنا هذا، فيدخل المسجد بعد العصر؛ أي قبل المغرب، ثم لا يخرج من المسجد ولو لحاجته إلى أن يُصلي الصُبح، لأن النَّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمره أن ينزل إلى المسجد في هَذِه الليلة.

فَحريٌ بنا معاشر الأحبة أن نعتنيَ بليلتنا القادمة، وأن يعظُمَ اجتهادُنا فيها، وَمَنْ كان مِنا يستطيع أن يبقى في المسجد من المغرب حتى يُصلي الصُبحَ ناوياً الاعتكافَ؛ فهذا خيرٌ عظيم، وبابٌ كريم، كان النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعتكف ليتحرى ليلة القدر، وليطلب ليلة القدر.

فمن كان لا يستطيع الاعتكافَ في العشر كُلها؛ فحسنٌ أن يعتكفَ في الليالي التي يعظُمُ الرجاءُ فيها في ليلةِ القدر، وهذه الليلة منها، فمن كان يستطيعُ ذلك فهذا أمرٌ حسن فتُكتبُ لك عبادة الاعتكاف، وتفوز بأجر الاعتكاف، وتتفرغُ في ليلتك هَذِه لعبادة ربك سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولعلكَ بذلك تُصيبُ ليلة القدر.

ثم قبل أن ننتقلُ إلى درسنا ألفتُ النظر إلى أنه للأسف الشديد بدأت خُزعبلاتُ الرؤى المتواطئة، في رؤية ليلة القدر، وبدأ أُناس ينشرون أنه تواطأت الرؤى، أن ليلة القدر كانت ليلةَ واحد وعشرين، وهذا قد حذرنا منه، وقلنا: إن المسلم لا يعتمدُ عليه، ولا يلتفتُ إليه، سبحان الله، إذا كان اللهُ أبهمها، ولم يُعينها لنا على لسانِ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فكيف يلتفتُ المسلمون إلى هَذِه الرؤى التي تُحكى، واللهُ أعلمُ من صدقها من كذبها، ولا خيرَ في الالتفات إليها.

قُلتُ وأقول: لا يجوزُ نشرُ هَذِه الرؤى فإنها تُخالف مقاصد الشريعة، وتُكسلُ النَّاس عَنْ العبادة، وكمَا يُقال بالعامية: يعني تُحبط آمال النَّاس في الليالي الباقية، وهذا عكس مَا أراده الله عَزَّ وَجَلَّ مِنا في ليلةِ القدر.

فلا تلتفتوا لهذا يا إخوة، ولولا أني رأيتها مُنتشرة لما ذكرتها هنا، لكن رأيتها مُنتشرة فذكرتها تنبيهاً وتحذيراً من أن يعتمد على مثلِ هَذِه الرؤى، وأن يُكسل عَنْ طاعة الله في بقية الليالي بسبب هَذِه الرؤى، وعلى الذين ينشرونها أن يتقوا الله.

قُلتُ: هَذِه الرؤى إن كانت صادقة يجوزُ نشرها بعد رمضان، أما في أيامِ العشر وليالي العشر، فلا يجوزُ نشرها، لأَنهَا مخالفة لمقصود الشارع، ولما أراده الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وتلحظون يا إخوة أنه حتى الرؤى التي رؤيت في زمن النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم تُعين لنا فيها الليلة، وإنما جاء أنها في الأوتار، وجاء أنها في السبع البواقي، فأُرشدنا إلى الاجتهاد في الأوتار وفي السبعِ البواقي، ثم تلك الرؤى كانت في زمن الوحي، في زمن البيان، والبيانُ والوحيُ قد انتهى.

فلا يجوزُ لأحد أن يحتج بالرؤى في زمن النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على نشر هَذِه الرؤى في زماننا هذا.

فالله الله يا إخوة، الله الله في بقية شهركم، أكرموا انفسكم، واجتهدوا في طاعةِ ربكم، إلى الله بكل مَا تستطيعون من خير، والله إن الواحد لا يدري لعله أن يسجد للهِ سجدة فيعلو بها إلى الفردوس الأعلى، يحرص، والله مَا يدري إنسان مَا الذي يبلغُ به أعلى الجِنان؟ الإنسان لن يدخل الجنة إلَّا بفضل الله، لن يدخل الجنةَ بعمله، ولكن عملهُ سببٌ لنيل فضل الله عَزَّ وَجَلَّ، ثم إذا دخل فإنه يعلو فيها بحسبِ أعمالِهِ الصالحة بحسبِ زمانها، وبحسبِ مكانها، وبحسبِ الإخلاصِ فيها.

فإذا اجتمع لك يا عبدُ الله الزمان وَهُوَ العشر الأواخر من رمضان، والمكان الفاضل وَهُوَ مسجد رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بقي عليك أن تجتهد أنت وأن تُعالجَ قلبك في الإخلاص لله عَزَّ وَجَلَّ، وإن فعلتَ ذلك فأبشر بالخير من الكريم المنان الرحيمِ الرحمن سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فوصيتي لنفسي ووصيتي لإخواني، وصيةَ مُحبٍ يُحبُ لإخوانه مَا يُحبُ لنفسه، واني لأرجو الله عَزَّ وَجَلَّ أنه كما جمعنا في مسجدِ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أن يجمعنا جميعًا مع رسولنا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أعلى جِنان الخلد في الفردوس الأعلى.

ثم إن درسنا كما تعلمونَ معاشر الفُضلاء في تفسيرِ كلام ربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حيث نتنعم بهذه النعمة العُظمى في مسجدِ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، نتدبرُ الْقُرْآن ونعرفُ معانيه، ونتعظُ بمواعظِهِ، ونقفُ عند حكمه، وهذا فضلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ يؤتيهِ من يشاءُ من عباده.

ولا زلنا كما تعلمون في تفسير سورة القلم حيثُ سنختمُ تفسيرها في هذا المجلس إِنْ شَاءَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فيتفضل الابن نور الدين وفقه الله والسامعين يقرأ لنا المقطع الذي وقفنا عنده.

(المتن)

أَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ ﴿٤٣﴾ فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾﴾

[القلم: ٤٢-٤٥].

(الشرح)

حسبك، يُبَيِّنُ ربُنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى متى يُكرم المتقين بجناتِ النعيم؟

لما تقدمَ أن للمتقينَ جنات النعيم، كأن سائلاً سأل: متى يُكرمُ اللهُ المتقين؟ فبين اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أنه يُكرمُ المتقين في يوم القيامة، الذي تكونُ فيه الأهوال والأمور العظام، والمواقف الجسام، حيثُ تذهلُ كُلُّ مرضعةٍ عما أرضعت، وتضعُ كُلُّ ذاتِ حملٍ حملها، وترى النَّاس يتمايلون، من شدة الخوف كأنهم سُكارى، وما بهم سُكرٌ، ولكن عذاب اللهِ شديد.

في ذلك اليوم يتميزُ المُتقونَ عَنْ غيرِهم، وذلك أنه يُنادي مُنادٍ لتتبع كُلُّ أمةٍ مَا كانت تعبد فتتبعُ كُلُّ أُمةٍ مَا كانت تعبد من الأصنام والأشجار وغيرِ ذلك، يقودُها معبودُها إلى جهنم، فيسقطُ ويتساقطون معه في جهنم، ويبقى اليهودُ والنصارى والمُسلمون.

فيشتكي اليهودُ الذين حرفوا التوراة، وعبدوا غير الله الظمأ؛ فتُخيلُ لهم النار كأنها ماء، فيُقالُ لهم إلَّا تريدون؟ فيذهبون إلى النار يُريدون الماء، فيتساقطونَ في جهنم.

ويشتكي النصارى الذين حرفوا الإنجيل وعبدوا غيرَ الله العطش؛ فتُخيلُ لهم النار كأنها ماء، فيُقالُ لهم إلَّا تريدون؟ فيذهبون يُريدونَ الشُربَ فيتساقطونَ في جهنم.

فيبقى من ينتسبونَ إلى أُمةِ مُحَمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، من الصادقينَ المُؤْمِنِيْن، والكاذبينَ المُنافقين، فيأتيهم الله عَزَّ وَجَلَّ، ويُقالُ لهم: مَا بالُ النَّاسُ قد ذهبوا وأنتم ها هُنا؟ فيقولون: ننتظر إلهنا فإذا جاءنا عرفناه، فيأتيهم الله عَزَّ وَجَلَّ، ويَكشفُ الجبارُ ساقهُ، ولربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ساقٌ تليقُ بجمالِهِ، وتليقُ بجلالِهِ، وتليقُ بكمالِهِ، لا نُشبهها بساق، ولا نتخيلُها، ولا نُكيفها ولكنا ورب الكعبة نُؤمنُ أن لربنا ساقاً تليقُ بذاكَ الجمال وذاكَ الكمال.

يكشفُ الجبار سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَنْ ساقِهِ؛ فيسجدُ لَهُ كُلُّ مؤمنٍ صادقٍ كان يسجدُ للهِ في الدنيا إيمانًا وإخلاصًا للهِ عَزَّ وَجَلَّ.

المؤمنونَ الصادقون المُتقون يتميزونَ يومَ القيامة بسجودهم للرحمن سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، كما أَنَّهُم كانوا يتميزونَ في الدنيا بسجودِهم صادقينَ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لا يُوجدُ مَنْ يَسجدُ للهِ في الدنيا إلَّا أهل الإيمان، يَسجدونَ صادقينَ لربهم؛ فيسجدونَ يومَ.

ويبقى المُنافقون وَمَنْ كانوا يَسجدونَ في الدنيا رياءً وسُمعة، يستحيلُ أو تستحيلُ أظهرهم طبقةً واحدة، فلا يستطيعون الانحناء، ولا يستطيعون السجود، وإذا أرادوا السجودَ وقعوا على ظهورهم، عكسَ السجود، السجودُ على الجبهة، وهم إذا أرادوا أن يسجدوا سقطوا على ظهورهم.

وهل المقصودُ بِمَنْ يَسجدُ رياءً وسمعة في الدنيا؛ المنافقون؟ لأنهم كانوا يقومون إلى الصلاةِ كُسالى يُراؤون النَّاس، أَوْ أن المقصودَ كُل مَنْ يَسجد للهِ رياءً؟

الأَمْر مُحتمل، لأن الذي يسجد رياءً قد يكون مُنافقًا، وقد لا يكون منافقًا، لكن يسجد رياء، فالأمر مُحتمل، والأمر خطير، ولذلك يا عبد الله احذر الرياء كُلّه، صغيرهُ وكبيره؛ ولا سيما في الصلاة، أنتَ إذا أردت الصلاة تقول: اللهُ أكبر، تنبه نفسك، فكيف تلتفت بقلبك عَنْ رب البشر إلى البشر؟! مَاذَا يفعلُ لك البشر؟! لا يملكون لك شَيْئًا، واللهِ إن مدحوكَ مَا رفعوك، وإن ذموكَ مَا أسقطوك، الرافعُ هو الله، والخافضُ هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، مَاذَا تُريدُ من الناس؟!

واللهِ لا خيرَ في أيديهم يبذلونه، فكيفَ تلتفت في عبادتك عَنْ ربك سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إلى النَّاسِ، فالحذر الحذر يا إخوة من الرياء، فإنهُ في يوم القيامة كما في حديث أبي سعيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، «يَسجدُ كُلُّ مؤمن» عندما يكشف الله عَنْ ساقه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، «يَسجدُ كُلُّ مؤمن ويبقىٰ مَنْ كان يَسجدُ رياءً وسُمعة»، -يعني في الدنيا- لا يستطيع السجود.

وكما قُلتُ لكم: الأَمْر محتمل أن يكونَ المرادُ في هذا الموقف بهم: المنافقين، ويُحتمل أن يكونَ المرادُ كُل مَنْ يَسجدُ رياءً -والعياذُ بالله-.

وفي ذلك اليوم الذي يُكرمُ فيه المُتقون، يكونُ المجرمون في غاية الفزع، وفي مُنتهى الذِلة، فتغشاهم الذِلة، وتعلوهم الذِلة، وتُحيطُ بهم الذِلة، وتَسكنُ أبصارهم، من شدة الخوف ومن شدة

الذُل، وذلك عكس حالهم في الدنيا، حيثُ كانوا يُدعونَ إلى عبادة الله، فيتكبرونَ ويتجبرونَ ولا يُطيعون، كانوا يُدعونَ إلى السجودِ وهم قادرون، أعضاؤهم سليمة تُطاوعهم لو السجودَ؛ لكنهم تكبروا وأبوا أن يسجدوا لله عَزَّ وَجَلَّ، وإن سجدوا سجدوا نفاقاً لا صدقًا، وكانوا يسمعونَ الأذان فلا يصلون ولا يستجيبون مع المُؤْمِنِيْن.

ومعلومٌ أيها الإخوة أنه كان في زمن النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لا يتخلفُ من الرجالِ عَنْ صلاةِ الجماعة إلَّا من كان مُنافقاً معلوم النفاق، فكانوا يدعون إلى الصلاة حي على الصلاة حي على الفلاح، ويسمعونَ ذلك فلا يستجيبون، وإن استجابوا قاموا كُسالى، يُراؤون النَّاسَ ولا يذكرون الله إلَّا قليلًا.

ثم يُسلي الله عَزَّ وَجَلَّ نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويتهددُ أعداءه، فيُقولُ لنبيهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: دعني وَمَنْ يُكذبُ بالقرآن، ومن يُكذبُ بما الْقُرْآن من الوعيد، ومن يكذب بأخبارِ يوم القيامة، ولا تُشغل قلبك بهم، وَكِل الأَمْر إليَّ، فأنا كفيلٌ بهم، أنا أكفيكَ شرهم، وهذا خطابٌ للمؤمنين كافة.

فيا معاشر المُؤْمِنِيْن لا يَفتنَ في عضدكم أن أعداء الإسلام يُهينونَ الْقُرْآن أَوْ يُحرقونَ الْقُرْآن، والله إنهُم لمتوعدون، وإن ربنا لكفيلٌ بهم، وسيتنقمُ منهم الجبار سُبْحَانَهُ وتعالى وَهُوَ الحكيمُ العليم وعلى كُلِّ شيءٍ قدير، ولهذا قال سُبْحَانَهُ ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٢]، أي: لن نُعاجلهم بالعقوبة، بل سنؤخرهم ونمدهم بأموال، ونمدهم ببنين، ونمدهم بنعم الدنيا لا إكراماً لهم، وإنما نستدرجهم ليزدادوا إثمًا على إثمهم، وليعظم غرورهم حتى إذا شئنا أخذهم، أخذناهم ولم نُفلتهم.

وهذا كيدُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ للمجرمين الذين يُحاربونَ الدين وكيدهُ سبحانهُ وتعالى عظيم، فاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُؤخرُ الظالم إمهالًا لَهُ لعله أن يتوب، أَوْ استدراجًا ليزداد غرورًا وإثما ولا يُعاجلهُ بالعقوبة حتى إذا أصرَ على ظُلمه أخذه على غفلةٍ منه ولم يُفلتهُ وكان أخذهُ أليمًا شديدًا.

ولذلك يا إخوة لا ينبغي للظالم ولو كان مسلمًا، أن يغترَ بإمهال الله لَهُ، ويستمرَ في ظُلمه ويظن أنه لا أحدَ فوقه، فإن الله عَزَّ وَجَلَّ إن شاءَ أن يأخذ الظالم بذنبه أخذه، فإذا أخذهُ لم يُفلته، -نسأل الله السلامة-، والله عَزَّ وَجَلَّ يُؤخرهم ويُؤخرُ أعمارهم ليزدادوا إثمًا.

نعود إلى تفسير الآيات، ونقرأ مَا ذكره الإمام السِعدي ونُعلقُ عليه.

(المتن)

قَالَ الإمام عبد الرحمن بن ناصر السعدي رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى وغفر لَهُ ولشيخنا والسامعين:

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ﴾ [القلم: ٤٢] أي إذا كان يومُ القيامة وانكشفَ فيه من القلاقلِ والزلازلِ والأهوالِ مَا لا يدخل تحت الوهم، وأتىٰ الباري لفصل القضاء بين عباده ومجازاتهم، فكشفَ عَنْ ساقِهِ الكريمة التي لا يُشبهها شيء، ورأىٰ الخلائقُ من جلال الله وعظمته مَا لا يُمكن التعبيرُ عنه، فحينئذٍ يُدعون إلىٰ السجودِ لله، فيسجُدُ المؤمنون الذين كانوا يسجدون لله طوعًا واختيارًا ويذهب الفجارُ المنافقون ليسجدوا فلا يقدرون علىٰ السجود وتكونُ ظُهورهم كصياصي البقر، لا يستطيعون الانحناء.

(الشرح)

تكونُ ظُهورُهم كصياصي البقر؛ يعني كقرون البقر، وقرون البقر قاسية صلبة، فتكون ظُهورُهم كَذَلِكَ، لا يستطيعون الانحناء، وإذا أراد أحدهم أن ينحني فإنه ينقلب على ظهره.

وظاهرٌ هنا أن كشف الساق إنَّمَا يكونُ لمن ينتسبونَ إلى أُمةِ مُحَمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الصادقين والمنافقين.

أما الصادقونُ في إيمانهم فكما يسجدونَ في الدنيا يسجدون للهِ في الآخرة.

وأما المنافقون الذين يسجدون كذباً ورياءً في الدنيا فَإِنَهُم لا يستطيعونَ السجودَ يوم القيامة.

(المتن)

قَالَ رَحِمَهُ الله: وهذا الجزاء من جنسِ عملهم، فَإِنَهُم كانوا يُدعونَ في الدنيا إلىٰ السجود للهِ وتوحيدِهِ وعبادته، وهم سالمون لا علة فيهم، فيستكبرون عَنْ ذلك ويأبون، فلا تسأل يومئذٍ عَنْ حالهم وسوء مآلهم، فإن الله قد سخِط عليهم وحقت عليهم كلمة العذاب، وتقطعت أسبابهم، ولم تنفعهم الندامةُ والاعتذارُ يومَ القيامة، ففي هذا مَا يُزعجُ القلوبَ عَنْ المُقام علىٰ المعاصي ويُوجبُ التدارك مدة الإمكان.

(الشرح)

هذا يجعل المؤمن يخافُ خوفًا شديدًا من الرياءِ والسُمعة، من أن يُظهر العملَ الصالح ليمدحه النَّاس على ذلك، أَوْ يتكلم عَنْ أعمالِهِ الصالحة ليمدحهُ النَّاس على ذلك، ويجعل المؤمن كَذَلِكَ يخاف

من المعاصي، ويخاف من ترك الواجبات، يخاف من الذِلة يومَ القِلة، يخاف من أن يكون ممن يُذلهم الله يومَ القيامة، وممن ينالهم الفزع في يومِ الفزع.

ولذلك يا إخوة على المؤمن أن يُذكرَ نفسهُ بهذا دائمًا، يا إخوة مَا الدنيا؟

واللهِ إنها قليلة، والذي فيها لغير الله حقير، وكُلُّ مَا فيها يمر، الحلو يمر، والمُرُّ يمر، والله ليس في الدنيا شيءٌ يَقِر، أبدًا، فماذا تنفع المعصية؟! أتُحصلُ لذةَ دقيقة! ساعة! يوم! ثم ماذا؟ تذهبُ تلك اللذة ورب الكعبة، وتبقى مرارتُها في القلبِ في الدنيا، وأثرها في الدنيا، كم من شخص مسلمٍ لا يستطيع أن يقرأ الْقُرْآن، كلما فتح المصحف يقرأ آية ايتين، مَا يستطيع أن يُكمل، ذنوبُه أثرت فيه.

كم من شخص مَا يستطيع أن يقوم الليل، لماذا؟ ذنوبهُ قيدته.

⟵ **ثُمَّ مَاذَا؟**

ثُمَّ الوعيد بالعذاب يوم القيامة، مَاذَا تنفعك لذةُ ساعةٍ أَوْ يوم؟ إن وجدت، هِيَ والله ذاهبة، مع مرارةٍ حاصلة ثم الوعيد.

علينا يا إخوة أن نُذكر أنفسنا بهذا أولًا، وأن نُذكرَ إخواننا وأن نتواصى بالحق ونتواصى بالصبر عَنْ المعاصي، فإن الذلةَ كُلَّ الذِلة لمن عصى الله يوم القيامة، وذاك هِيَ الحياة الحقيقية، الحياة الدائمة، فعلى المؤمن أن يتنبه لهذا الأَمْر العظيم.

(المتن)

﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ﴾ [القلم: ٤٤] أي: دعني والمكذبين بالقرآن العظيم، فإن عليّ جزاءهم ولا تستعجل لهم.

(الشرح)

بهذا الحَدِيْث، قال بعضُ أهل العلم: هو الْقُرْآن.

وقال بعضُ أهل العلم: هو يوم القيامة، يُكذبون بيوم القيامة.

وقال بعض أهل العلم: هو الوعيد.

وهذه المعاني ليست مُتضادة بل كُلها مقصودة، مَنْ يُكذبُ بهذا الْقُرْآن وما فيه من أخبار يوم القيامة وما فيِه من الوعيد، فكُلُّها داخلةٌ في الآية.

(المتن)

فـ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القلم: ٤٤].

(الشرح)

الاستدراج يا إخوة، أصلهُ: النقل من حال إلى حال، النقل من حالٍ إلى حال، والمقصودُ: الإمهال مع الإنعام لتزداد الآثام، الإمهال مع الإنعام لتزدادَ الآثام، الله قد يُمهل العبد ليتوب، وقد يُمهلُ العبد استدراجًا، مَا هو الاستدراج؟ هو الإمهالُ مع الإنعامِ لتزدادَ الآثام، وآيةُ ذلك وعلامة ذلك: أن الإنسان مع إنعام الله عليه لا يزداد إلَّا إثما، مَا يرجعُ إلى الله، مَا يتذكر، مَا يتوب، كُلمَا أنعم الله عليه زاد إثماً، -نعوذُ باللهِ من سوءِ الحال-.

(المتن)

فـ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القلم: ٤٤] فنمدهم بالأموال والأولاد، ونُمدهم في الأرزاقِ والأعمال ليغتروا ويستمروا علىٰ مَا يضرهم، وهذا من كيدِ اللهِ لهم، وكيدُ اللهِ لأعدائه متين قوي، يُبلغُ من ضررهم وعقوبتهم كُلَّ مبلغ.

(الشرح)

نعوذُ باللهِ من الاستدراجِ بالإحسان، ومن الافتتانِ بثناء الإنسان، ومن الاغترارِ بستر الرحمن، واللهِ يا إخوة هَذِه الأمور الثلاثة ينبغي على الإنسان أن يتنبه لها.

الاستدراج بالنعم، فإذا رأيت الله يُنعم عليك، ويزيدك نعمًا وأنت مقيم على معصية وأنت أعرف بنفسك من النَّاس، فانتبه واحذر، ارجع إلى الله بسرعة قبل أن يأخذك، فإن هذا قد يكون استدراجاً، والاستدراجُ يتبعه الأخذ.

وإذا رأيت النَّاس يُثنون عليك، فانتبه والله أنها فتنة! نعم، المؤمنون شهود الله في الأَرْض، والله إذا أحب عبدًا وضع لَهُ القبول في الأرض، لكن إياك أن تفتن بثناء النَّاس عليك، انظر مَا بينك وبين الله دائمًا، واللهِ والله واللهِ لو رفعت النَّاس إلى عنان السماء والذي بينك وبين الله فاسد؛ إنك في أسفل سافلين، ولو كنت غير معروف ولا يُثني عليك النَّاس، بل ربما سبك بعض النَّاس لكن الذي بينك وبين الله عامر، والله إنكَ في عليين، انتبه أن تُفتنَ بثناء النَّاس!

راقب قلبك وأعمالك، هل الذي بيني وبين ربي عامر؟ إن كان عامراً فأحمد الله، وإن كان على غيرِ ذلك فخف الله، والله مَا حماكَ ثناءُ النَّاس، ولا رفعكَ ثناءُ النَّاس، وإنما الذي يحميك ويرفعك هو ربُ النَّاس سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولذلك لا تغتر بالثناء ولا تترك الحق من أجل النَّاس، دائمًا راقب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ما الذي بينك وبين الله؟ وعلامة ذلك انظر لنفسك في الخلوة، انظر لنفسك في الخلوة، كيف أنت؟ إن رأيت أنك إذا خلوت بمحارم الله انتهكتها وإذا برزت أمام النَّاس تجملت وأظهرت الطاعة فاعلم أن الأَمْر خطير.

وإذا رأيت أنك إذا خلوت بمحارم الله تذكرت أن الله يراك، وأن الله يسمعك فاستحييت من الله، وقلت لنفسك: أنا استحي من إنسان أستطيع أن أضحك عليه، وأُبرر لَهُ ولا استحي من الله الذي على مَا في قلبي ويعلمُ سِري قبل أن أفكر فيه.

والآفة الثالثة: الاغترار بستر الله، الله سِتير، وبعض العلماء يقول: سَتير، يستر ويستر ويستر، لكن لا تغتر بستر الله، بل اشكر الله، يا أخي سبحان الله! عصيتَ وفعلتَ عيباً تُعابُ به فسترك الرحمن، لماذا لا تشكر الله وترجع إلى الله؟ لماذا تغتر بستر الله وتزداد في الآثام وتزداد في الآثام؟

يا أخي زلة القدم أنت ضعيف وكل بني آدم خطاء، من منا الذي يقول: ليس لي معصية؟ كُلنا واللهِ عُصاة، لكن الفُضلاءِ مِنا مَنْ يتوبون إلى الله ويرجعون إلى الله، عصيتَ وليس من شرط المؤمن ألَّا يعصي، بل كل بني آدم خطاء، ضعُفتَ فعلت ذنباً ستركَ الله، مَا علمَ أحد، خف واشكر وارجع إلى الله وتب إلى الله واترك هذا الذنب، وإياكَ أن تغتر بستر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

نرجعُ إلى المقطع الأخير.

(المتن)

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٥٢﴾﴾

[القلم: ٤٦-٥٢].

(الشرح)

يُبيّنُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أنه ليس لنفور المشركين من النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سبب، فهو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جاء بالحق المُبين، وعلى خُلقٍ عظيم يدعوهم إلى الهُدى ويتعب نفسه في البيانِ لهم بدون أن يطلب منهم شَيْئًا لنفسه، فاللهُ عَزَّ وَجَلَّ يقولُ لنبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أنت يا مُحَمَّد تدعوهم إلى خيرهم، ولا تطلبُ منهم لنفسكَ شَيْئًا من مالِهم، فلا تُثقلهم بشيء، بل ترجو ثوابَ ذلك من ربك، فلماذا يُعاندونك؟ ولماذا يُكذبونك؟ ولماذا يكفرونَ بما جئت به؟

الذي جئت به حقٌ واضح وأنتَ على خلق عظيم، وأنتَ لم تطلب شَيْئًا من الدنيا؛ إذاً لا سبب لكفرهم، ولا سبب لتكذيبهم ولا سبب لنفورهم سوى الكفر سوى الكبر، والعناد وظلمة النفوس، نفوسهم مظلمة مُتكبرة مُتجبرة عَنْ الحق، وبماذا يُجادلونك ويزعمون غير مَا تقول، أعندهم اللوحُ المحفوظ يكتبون منه كُتبًا يجدونها عندهم وفيها مَا يزعمون، من أن اللهَ لن يُعذبهم يوم القيامة، وأَنَّهُم لو بعثوا فَإِنَّهُم سيكونون مكرمين.

أم أن الله كشف لهم الغيب فعرفوا أَنَّهُم على حق، وأَنَّهُم على خير، وكُلُّ ذلك لم يكن يقيناً، فدعواهم باطلة، وأخبارهم كاذبة، فليس عندهم سوى العناد، وليس للعناد سوى الصبر.

الذي يُعاند مَاذَا تفعل به؟ أن جئته يميناً ذهب شمالاً، وإن جِئته شمالًا ذهب يميناً، وإن تقدمت في الإمام ذهب إلى الخلف، وإن ذهبتَ إلى الخلف تقدم إلى الإمام، ليس للعناد إلَّا الصبر.

وهنا فائدة تربوية يذكرها العلماء، يقولون: إذا ظهر لكَ أن الذي أمامك مُعاند فلا تجادل وأصبر، حتى البيت، إذا ظهر لك مثلًا: أن الزوجة مُعاندة مَا عندها إلَّا العناد، لا تجادلها، لأنك لن تصل إلى خير، وستتفاقم الأمور وستزداد المشكلة.

فالمقصودُ هنا: أنه ليس عندهم إلَّا العِناد، وليس للعِنادِ إلَّا الصبر، ولذلك أمر الله نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يصبر على وعلى عنادهم وعلى أذيتهم لَهُ، فإن العاقبة لَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وللمؤمنين وأصبر أيضًا لأمر الله بتبليغ دينه ولا يصدنكَ عَنْ ذلك عناد الكُفار، وأذى الكَفار، فأصبر لحكم الله، شرعًا وقدرًا، اصبر لحكم الله شرعًا، بالثبات على الدين وتبليغ الدين، وأصبر على حكم الله قدرًا من أنه لن يدعو أحد، بل لن يتمسك أحد بالخير إلَّا ويؤذى، لا تحسبنَ أنك إن تمسكت بالخير لن يأتيك أذى، بل قد يأتيك الاذى من أقرب النَّاس إليك، فأصبر لحكم ربك، وأثبت على

الحق والهدى فإن كل مَا يجري بقضاء الله وقدره لحكم عظيمة ولا تكن كنبي الله يونس ابن متى عَلَيْهِ السَّلَامُ صاحب الحوت، حيثِ غضب من اصرار قومه على الكفر دعاهم ودعاهم ودعاهم فأصروا وعانوا، ولم يؤمنوا فغضب عَلَيْهِ السَّلَامُ من عنادهم وأيسَ منهم، وتعجلَ في مفارقتهم، قبل أن يأذن اللهُ لَهُ فركب البحر في ليفارق القوم الكافرين، فهاج البحر واغتنم فاقترع أهل السفينة لرمي أحدهم مع متاعه، من أجل تخفيف السفينة، فكان عليه عَلَيْهِ السَّلَامُ، فألقي في البحر فالتقمه الحوت، فكان في ظلمة بطن الحوت في ظلمة البحر.

وهناك سمع تسبيح مَا في البحر لله، فلما سمع ذلك وَهُوَ محبوسٌ في مكانٍ ضيق مُظلم، سَبَحَ الله سُبْحَانَهُ تَعَالَى وقد كان في غاية الهم وغاية الكرب عَلَيْهِ السَّلَامُ فسبح الله ونادى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، دعوة احفظوها يا إخوة فوالله مَا وضعها أحد في دعائه صادقا إلَّا استجيب لَهُ، بهذا أخبر النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مَا جعلها أحد في دعائه صادقا فيها إلَّا استجيب لَهُ،﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الصافات: ١٤٣-١٤٤]، أَوْ رمي في أرض فضاء واسعة لا جبالَ فيها ولا شجر لكنه كان قبل ذلك من العابدين، فعرف الله في الرخاء، وعندما ضاق به الأَمْر كان من الموحدين، فهو عَلَيْهِ السَّلَامُ عابدٌ سابقًا، موحدٌ عند الضيق، دعا الله وسبح الله فاستجاب اللهُ نداءهُ مباشرة، ونجاه وقربه واصطفاه، واختاره وجعله بعد ابتلائه من الكاملين في الصلاح، وقبلَ شفاعته في قومه وأرسله إلى مئة ألف أَوْ يزيدون.

فصبر النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صبر أُولي العزم من الرسل، وزاد أذى الكُفار لَهُ، وزادت عداوة الكُفار لَهُ وكانوا يحسدونه، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأرادوا قتلهُ بالعين، والعينُ حَقّ، وكان هنالك رجل يُعرفُ بقوة العين، فذهب إليه كُفار قُريش، وطلبوا منه أن يُصيب النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالعين، فنظر بيتا يمدحُ به النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والمعيان إذا مدح أصاب، فحفظ الله نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعصم نبيه، فلم يُصب صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعينِ ذلك المعيان.

فازداد أذى الكفار وازدادت عداوتهم وصاروا ينظرون إلى النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان الشرر يتطاير من عيونهم ومن قوة عداوتهم وقوة نظرتهم إلى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يكاد أن يقع النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من ذلك، ولكن الله يحفظه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وآذوه بألسنتهم، فقالوا إنه لمجنون لمجيئه بالقرآن -كما تقدم-، هم كانوا يمدحونه، فلما جاء بِالقُرْآنِ قالوا كذاب، قالوا مجنون، وما الْقُرْآنُ وما مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلَّا ذِكرى للعالمين، ذِكرى للجن والإنس، يتذكرون بها وشرف للعالمين، شرفٌ للجنِ والإنس والله الْقُرْآن ذِكرى لصاحبه إن تدبره، وشرفٌ لصاحبه يعلو به الإنسان في الدنيا والآخرة، إن أخلص لله.

ومحمدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، شرفٌ لاتباعه، شرفٌ في الدنيا وشرفٌ في الآخرة، نعم والله الشرفُ لكم أنتم يا مَنْ صدقتم بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، واللهِ لا شرفَ لمن كذبَ بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، واللهِ لا عزَ لمن كذبَ بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الشرفُ والعز لمن آمن بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، شرفٌ في الدنيا وشرفٌ في الآخرة، حيثُ تكون أمة مُحَمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نصف أهل الجنة، وأولُ من يُفتح لَهُ باب الجنّة هو مُحَمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فهذا هو الشرف.

إذًا ﴿وَمَا هُوَ﴾ أي: وما الْقُرْآنُ، وما مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلَّا ذِكرى للعالمين، ومعنى (الذكرى) كما قلنا إنها مُذكرة يُتذكرُ بها وأَنهَا شرفٌ لأصحابها.

نرجعُ إلى الآيات نُفسرها آيةً آية.

(المتن)

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ﴾ [الطور: ٤٠]، أي ليس لنفورِهم عنكَ وعدم تصديقهم لكَ سببٌ يُوجبُ لهم ذلك، فإنك تُعلمهم وتدعوهم إلىٰ الله لمحضِ مصلحتهم من غير أن تطلب من أموالهم مغرمًا يثقلُ عليهم.

﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الطور: ٤١]، مَا كان عندهم من الغيوب، وقد وجدوا فيها أَنْهم علىٰ حَقّ، وأن لهم الثواب عند الله.

(الشرح)

الغيب، قال بعض المُفسرين: هو اللوح المحفوظ، الذي كُتبَ فيه كُل شيء.

وقال بعض أهل العلم: هو مُطلق الغيب.

يعني من اليقين أنه ليس عندهم اللوح المحفوظ وما وصلوه، ومن اليقين أَنهُم لا يعلمونَ الغيب؛ فمن أين جاءوا بهذه الخُزعبلات وهذه الدعاوى وهذا الكُفر؟

(المتن)

قَالَ رَحِمَهُ اللهُ: فهذا أمرٌ مَا كان، وإنما كانت حالهم حالَ مُعاندٍ ظالم، فلم يبقَ إلَّا الصبر لأذاهم والتحمل لما يصدرُ منهم والاستمرارُ علىٰ دعوتهم، ولهذا قال: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ [القلم: ٤٨]، أي لما حكمَ به شرعًا وقدرًا، فالحُكمُ القدري يُصبرُ علىٰ المؤذي منه ولا يتلقىٰ بالسخطِ والجزع، والحُكمُ الشرعي يُقابلُ بالقبولِ والتسليمِ والانقيادِ التام لأمره.

وقوله: ﴿وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾ [القلم: ٤٨] وَهُوَ يونسُ بن متىٰ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ أي ولا تُشابههُ في الحال التي أوصلته، وأوجبت لَهُ الانحباسَ في بطن الحوت، وَهُوَ عدم صبرهِ علىٰ قومهِ الصبرَ المطلوبَ منه، وذهابهُ مغاضبًا لربهِ، حتىٰ ركب في البحرِ فاقترع أهلُ السفينةِ حين ثقلت بأهلها أيهم يُلقون لكي تَخفَ بهم، ووقعت القُرعةُ عليه ﴿فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ [الصافات: ١٤٢].

وقوله: ﴿إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ [القلم: ٤٨] أي: وَهُوَ في بطنها قد كظمت عليه، أَوْ نادىٰ وَهُوَ مُغتمٌ مُهتم.

(الشرح)

(كظمت عليه) يعني ضاقت عليه.

(المتن)

أَوْ نادىٰ وَهُوَ مُغتمٌ مُهتم فقال: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

(الشرح)

انتبهوا هنا يا إخوة إلى ملحظ: قال ربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ [القلم: ٤٨]، فطوى الله مَا نهى عنهُ، لأَنَهُ يا إخوة ﴿وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾، في ماذا؟ هل هو في كونهِ نادى وَهُوَ مكظوم، ودعا وَهُوَ مكظوم، ووحدَ وَهُوَ مكظوم؟ لا والله، إذًا طوى الله مَا نهى عنه النَّبِيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وذكرَ آخر القصة.

فيُنتبه لهذا: المنهي عنهُ مطويٌ عُلم من القصة في موضع آخر.

(المتن)

فاستجاب اللهُ لَهُ وقذفتهُ الحوتُ من بطنها بالعراءِ وَهُوَ سقيم، وأنبت الله عليه شجرةً من يقطين.

(الشرح)

يعني ﴿لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾، (نعمة من ربه) مَا هَذِه النعمة؟ قال بعض أهل العلم: النبوة، وقال بعض أهل العلم: العبادةُ السابقة والدعوةُ اللاحقة، فهي سببُ نعمةِ ربه عليه.

﴿لَنُبِذَ﴾ لرُبِيَ، ﴿بِالْعَرَاءِ﴾ العراء هِيَ الأَرْض الواسعة التي لا جبالَ فيها ولا شجر، ﴿وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ يعني وَهُوَ مُلامٌ على مَا فعل، لكن ذلكَ لم يكن؛ وإنما استجابَ الله دُعاءهُ فَنُبذَ في مكانٍ طيبٍ وَهُوَ سقيم، وليس ملوماً وإنما وَهُوَ سقيم، ورعاها الله عَزَّ وَجَلَّ.

(المتن)

ولهذا قال هنا: ﴿لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ﴾، أي لطُرِحَ في العراءِ وَهِيَ الأَرْضُ الخالية، ﴿وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ ولكن الله تغمده برحمته فنُبذَ وَهُوَ ممدوح، وصارت حالهُ أحسنَ من حالهِ الأُوْلَى، ولهذا قال: ﴿فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ﴾ أي: اختاره واصطفاه ونقاه من كُلِّ كَدر.

(الشرح)

نعم، اختاره واصطفاه، وقربه.

وهذه فائدةٌ من فوائد الابتلاء؛ فإن بعض النَّاس يقول: لماذا يبتلي الله من يُحبُهم؟

الابتلاء يا إخوة لَهُ ثلاث فوائد:

- **الفائدة الأُوْلَى**: أنه تكفيرٌ للذنب.
- **الفائدة الثانية**: أنه تنبيهٌ من الغفلة، كم من شخص يا إخوة كان عاصياً فأخذ الله ابنه فرجعَ إلى الله.
- **والثالثة**: زيادة الدرجة في الجنة، فالله يبتلي مَنْ يُحب ليُكفرَ ذنبه إن كانَ عليه ذنب، وليُنبهَهُ من غفلةً إن غفلَ في شيء، أَوْ ليرفعَ درجتهُ في الجنّة إن لم يبلغ ذلكَ بعمله.

(المتن)

﴿فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي: الذين صلحت أعمالهم وأقوالهم ونياتهم وأحوالهم، فامتثل نبينا مُحَمَّد صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمر الله، فصبرَ لحُكم ربهِ صبرًا لا يُدركهُ فيهِ أحدٌ من العالمين، فجعل اللهُ لَهُ العاقبةَ والعاقبةُ للمتقين.

ولم يبلغ أعداءهُ فيه إلَّا مَا يسوؤهم، حتىٰ أَنْهُم حرصوا علىٰ أن يزلقوه بأبصارهم، أي يُصيبوه بأعينهم من حسدهم وحنقهم وغيظهم، هذا مُنتهىٰ مَا قدروا عليه من الأذىٰ الفعلي، واللهُ حافظهُ وناصره.

وأما الأذىٰ القولي فيقولون فيه أقوالًا بحسب مَا تُوحي إليهم قلوبهم، فيقولون: تارة مجنون وتارة شاعر وتارة ساحر.

قال تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾، أي وما هذا الْقُرْآنُ العظيم والذكرُ الحكيم إلا ذِكرٌ للعالمين، يتذكرون به مصالح دينهم ودُنياهم، والحمدُ لله.

(الشرح)

وقلت لكم ﴿وَمَا هُوَ﴾ بعض المفسرين قالوا: أي الْقُرْآن، وبعض المفسرين قالوا: مُحَمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكلاهما مُراد.

و ﴿ذِكْرٌ﴾ قيل: يتذكرُ به، وقيل: شرفٌ، وكلاهما مُراد.

وبهذا نكون ختمنا تفسير سورة القلم.

نختم سريعًا ببعض حكمِ السورة، من حكم السورة:

➤قيمة العلمِ، فالعلمُ شرفٌ عظيم، ولذلك يا إخوة لا يصبرُ على العلم إلَّا الأشراف، العلم صعب ثقيل، والعلماء يقولون: كُلما شرفَ الشيء كلما تعب الإنسان في طريقهِ إليه، الجنة غالية فأنت تتعب في الطريق إليها، الجنة لا تُنال إلَّا على جسرٍ من التعب، العلم شريف ولذلك لا يُنال إلَّا بالصبر، الجلوس تسمع خمس دقائق عشر دقائق ربع ساعة، بعد كذا يأتيك النوم، يأتيك الكسل، يأتيك الشيطان، يحتاج أن تصبر.

➤الفائدة الثانية: شرف رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فهو سيدُ ولدُ آدم، وخيرُ مَنْ خلق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

➤**الفائدة الثالثة**: خطورةُ مُجالسةِ أهل الاهواء الذين يزينون الباطل بالأقاصيص والكذب والحف، ويُقبحون الحَقَّ بوصف أهلِهِ بالأوصافِ الباطلة.

➤**الحكمة الرابعة**: أن أعظم نعمةٍ على أهل الأَرْض هِيَ بعثةُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والوحيُ إليه، فَمَنْ قبلها عاشَ حياةً طيبة، ومن أباها عاشَ حياةً ضنكًا في الدنيا والآخرة.

➤**الفائدةُ الخامسة**: أنَ مَنْ لَم يشكر الله على النعمة، أوشك أن يحرمهُ منها، أن مَنْ لم يشكر الله على النعمة أوشك أن يحرمهُ منها.

➤**الفائدةُ السادسة**: أن النيّةَ على الشر مع بعض العمل يُؤاخذُ بها الإنسان، يعني مَنْ نوى على الشر وسعى فيه ولو لم يعملهُ؛ فإنه يُؤاخذُ به، ويُعاقبُ به، أما النيّة بدون عمل فلا يُؤاخذ بها الإنسان -أعني نية الشر-، لكن إن وسعى، يعني -والعياذُ بالله أجارني الله وإياكم-، نوى الزنا فخرج من بيته ليزني حتى لو لم يحصل منه الزنا يُعاقب على هذا؛ لأَنَهُ نوى وصدرَ منه بعض العمل.

وهذا الذي كان من أهل البُستان، أهل الجنة؛ فَإِنَهُم مَا حرموا المساكين لكنهم نووا وعملوا ودبروا وخرجوا، فعاقبهم الله وأحرق جنتهم.

➤**الفائدةُ السابعة**: أن نجاحَ الداعية في استغنائهِ عما في أيدي النَّاس، وفي عدمِ طلبهِ من النَّاس شَيْئًا، يا طالب العلم، يا مَنْ تُعلم النَّاس، يا مَنْ تدعو إذا أردتَ أن تنجح في دعوتكَ بعد إخلاصك لله عَزَّ وَجَلَّ فلا تطلب من النَّاس شَيْئًا، أعطهم الخير ولا تطلب منهم شَيْئًا، ذلك من أعظم أسباب نجاح الدعوة، ومن أعظم أسباب نجاح تعليم الإنسان للناس أن يستغنيَ عما في أيدي النَّاس، ولا يطلب من النَّاس شَيْئًا.

➤**الحكمة الثامنة**: أن نجاحَ الإنسان وخيرَ الإنسان في جميعِ أمورهِ يكونُ بالصبرِ، الصبرُ مفتاح كُلِّ خير، فمن رُزقَ الصبر فقد رُزقَ الخير في جميع الأمور، في الخير والشر، يعني في الخير والبلاء، إذا رُزقَ الإنسان الصبر فصبرَ على الطاعة وصبرَ عَنْ المعصية وصبرَ على البلاء؛ فقد نجح وأفلح.

وبهذا نختم كلامنا عَنْ تفسير سورة القلم، أسألُ الله عَزَّ وَجَلَّ أن يجعله مما ينفعنا في الدنيا، ومما نُرفعُ به عند لقاء ربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

إِنْ شَاءَ اللهُ الليلة بعد التراويح في هذا المكان عندنا محاضرة عَنْ أمرٍ مهمٍ جدًّا يتعلق بالقلوب، وأهم مَا في الإنسان القلب، إِنْ شَاءَ اللهُ بعد أن نصلي التراويح والليلة ليلة ثلاثة وعشرين، نجلس هنا نذكر الله، ومن أشرف الأعمال أن تجلسَ في حلقة علمٍ في مسجد رَسُول الله، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهو عملٌ نرجو أن يتقبله الله مِنا، ولعلها أن تكون ليلة القدر.

والإخوة القائمون على الدروس جزاهم الله خيرًا رتبوا، وهذا بالنسبة لمرآة الحرمين أَوْ منارة الحرمين، رتبوا أن تُترجم المحاضرة إلى عشر لغات حية فورًا، ثم تثبت بعد ذلك إِنْ شَاءَ اللهُ مع المحاضرة؛ ليستفيد الإخوة الذين لا ينطقون بالعربية من المحاضرة بمتابعتها في منارة الحرمين، فمن كان يعرفُ أحدًا ممن لا يعرف العربية يُخبره بهذا وأن المحاضرة ستكون على منارة الحرمين مترجمة هناك أيقونة للترجمة، يختار اللغة التي يريد ويتابع إِنْ شَاءَ اللهُ.

أسأل الله عَزَّ وَجَلَّ أن يُبارك في الجهود، وأن يجعلنا خادمين لامة مُحَمَّد صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأن يتقبلَ منا أجمعين، واللهُ تَعَالَىٰ أَعْلَىٰ وَأَعْلَمُ.

وَصَلِّ اللهُ عَلَى نَبِيِّنَا وَسَلَّمَ.

وَالسَّلامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ.